

المصطلح في التراث النقدي والبلاغي العربي ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء
"لحازم القرطاجني" أنموذجاً.

أ. سامية بقاح المركز الجامعي - ميله

الملخص باللغة العربية:

هذه الدراسة محاولة متواضعة تسعى إلى الإسهام في قراءة التراث العربي الشامخ، من خلال التعريف بواحد من أهم الكتب التي تزخر بها المكتبة العربية، والمتمثل في "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، هذا الكتاب الذي أسال، ولا يزال يسيل حبر أقلام باحثين ودارسين ونقاد كثر.

تناولنا في هذه الدراسة جزءا بسيطا من هذا الكتاب المتقرد في موضوعه، المتقرد في إضافاته والمتقرد في منهجيته، وهو "المصطلح"، فقد استطاع القرطاجني أن يبرهن على وجوده وتميزه من خلال المصطلح الذي ساهم في إرسائه، فكان رائدا لمن جاء بعده من النقاد والبلاغيين الذين جعلوا المصطلح أساسا علميا لنظرياتهم النقدية والبلاغية. كما ساهم اطلاعه على الرصيد الفلسفي والتراث العربي في توليده لمصطلحات كثيرة ومتنوعة، فجاء كتابه "المنهاج" زائرا بالمصطلحات الفلسفية والنقدية والبلاغية والأسلوبية والعروضية، وحتى النفسية التي يقف القارئ منبها أمامها.

الكلمات المفتاحية: المصطلح، المنهاج، السراج، الإضاءة، التنوير.

الملخص باللغة الأجنبية:

Abstract:

This study is a modest attempt which aims at contributing to understanding the high Arab patrimony, through presenting and identifying one of the most eminent books in the Arab library. "MINHAJ AL BOULAGHAE WA SIRAJ AL OUDABAE", this book which is and will be the concern of many researchers and rhetoricians throughout the times.

In this work, I have dealt with "THE TERM", a little part of Al Qartajanni's specific book, with its specific topic, additions and methodology.

The writer could demonstrate his existence and his exception through "THE TERM", which he contributed to setting, and thus

became a leader for the critics and rhetoricians who succeeded him, considering "THE TERM" a scientific basis for their critical and rhetorical theories.

Moreover, his philosophical and Arab patrimony knowledge helped him to create many and various terms, which enriched his book with philosophical, critical, rhetorical, stylistic and even psychological terms.

In this modest work, I attempted to study, interpret and discover the signification of some of the literary author's terms, whether inherited or created.

مقدمة:

يعدّ المصطلح من أهمّ المواضيع التي شغلت بال الباحثين في ميادين عدّة من العلوم الإنسانية قديما وحديثا، فهو أكثر المفاهيم رواجاً وتداولاً في الدرس النقدي العربي منه والغربي. ونظراً لأهميته، ومساهمته في عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب وبين المبدع والمتلقي، اهتمّ العرب به، وبذلوا جهداً كبيراً في إرساله.

إنّ المتفحص في التراث العربي، يجد فيه مختلف المصطلحات النقدية والبلاغية والفلسفية والعروضية والأسلوبية والنفسية، التي تكفي لتأسيس منهج أو نظرية نقدية ذات ملامح عربية، ولهذا يجب أن تتضافر الجهود لدراستها والتعمق فيها.

وقد انكب الدارسون حديثاً على التراث الإنساني محلّين إياه، كاشفين الحجاب عن موضوعاته المختلفة، غير أنّ هذه الدراسات في غالبيتها دارت حول نصوص أجنبية، وبلغات أجنبية، وبذلك ظلّ رصيد الاهتمام بالتراث العربي ضئيلاً جداً رغم غناه وضخامته. فتراثنا العربي فيه من النضج الفكري والوعي النقدي ما يجعلنا حريصين على قراءته، باستثمار الإجراءات الحديثة التي قدّمتها البلاغة واللسانيات والسّميات.

وعملاً بالقول الشائع: "أفتح نوافذ بيتي لكي تهب عليه رياح كل الثقافات، شرط أن لا تقتلني من جذوري"، ارتأينا أن نلتفت إلى الجذر والأصل، ونهتم بتراثنا الذي يزخر بكثير من المصادر التي تحمل بين سطورها مختلف المعارف التي

وجب على الباحث أن يقف عندها، ويعيد النظر فيها ويستفيد منها ليأخذ ما ينفعه، ويصوغ ما يناسبه في دراسته لمختلف القضايا.

إنّ الأدباء والباحثين لقادرون على أخذ مصطلحاتهم من القديم بهدف إنعاشها، وإعادة الحياة إليها، ومنه إحياء المصطلحات التراثية التي لا نجد لها في متناول نقادنا المحدثين إلا قليلا، فهم يستخدمون مصطلحات تكون في الغالب غامضة وغير محدّدة. وعلى هذا الأساس نحن بحاجة ماسّة إلى إرساء علم المصطلح العربي، من خلال البحث في التراث عمّا نحتاجه من هذه المصطلحات، للتعبير عن القضايا المهمة، وتطوير المواقف المختلفة من جهة، وضرورة الاهتمام بها، وعودة النقاد والباحثين إليها في قراءاتهم المعاصرة من جهة أخرى

وحرصا ممّا على ذلك، اخترنا موضوعا للبحث والتّطبيق من ذخيرة تراثنا العربي، يتعلّق بقضية المصطلح عند الشاعر والنّاقد والفقهاء، والفيلسوف "حازم القرطاجني" الذي اهتم بقضية الاصطلاح والمصطلح، وهذا ما تدلّ عليه فصول كثيرة من كتابه الثري "منهاج البلغاء وسراج الأدباء".

- فمن أين استقى حازم القرطاجني منظومته المصطلحية؟ هل هي وليدة البيئة العربية؟ أم هي حصيلة تزاوج بين ثقافته وثقافات أخرى؟

1- مفهوم المصطلح:

"المصطلح" مأخوذ من المادة اللغوية "صلح"، فقد جاء في لسان العرب: «أصلح الشيء بعد فساده: أقامه، والصلح: السلم، وقد اصطلحوا وصالحو واصلحوا وتصالحو [...] بمعنى واحد».¹ أما في الاصطلاح فهو: «العرف الخاص، وهو اتفاق طائفة مخصوصة على وضع شيء مخصوص»،² أي هو الاتفاق والمواضعة بين فئة من المتكلمين مميّزين بعلم أو معرفة، أو صنعة على تحديد مفاهيمهم ومقاصدهم.

ولا يكاد يخرج اللغويون والباحثون عن المعنى السابق³، وهكذا تتحدّ الدّالّتين المعجمية والاصطلاحية في كلمة "المصطلح"، أو "اصطلاح" لتغدو اتفاقا لغويا طارئا بين طائفة مخصوصة على أمر مخصوص في ميدان خاص.⁴ فالمصطلح وضع أساسا للشرح والتّبيين والتّوضيح، وغايته الأساسية إحداث نوع من التواصل،

والانسجام بين المبدع والمتلقي. ورغم اهتمام الدراسات العربية المعاصرة بالمصطلح في المؤتمرات والندوات والدراسات المستمرة، إلا أنّ هذا الأخير بقي مضطربا غير مستقر، فهو لا يزال بحاجة إلى دراسات للبحث في مشكلاته وتقديم الحلول المناسبة للتخلص منها.

يخضع وضع المصطلحات في كل لغة إلى قوانين صوتية، وصرفية ونحوية، ودلالية، تتحكم في توليد الألفاظ والدلالات، وصياغتها والتوسع فيها. ومن هذه الوسائل في اللغة العربية، الاشتقاق، والمجاز والتراكيب، والاقتباس. كما جرت العادة أن يقيّد "المصطلح" بجملة من الشروط العامة التي تميّزه عن الكلمات اللغوية، كأن يكون قصيرا لا يتجاوز الكلمة الواحدة، ويمكن أن يكون في الحالات الاستثنائية عبارة قصيرة.⁵

يؤدي المصطلح دورا مهما في التواصل بين الناس، فهو أداة من أدوات التفكير والبحث، إذ إنّ المفاهيم تنتقل إلى الأذهان عبره، واستثناسا بهذا المفهوم تمثل المصطلحات مفاتيح المعرفة العلمية، وآليات لإقامة أبنيتها، «ببدايتها يبدأ الوجود العلمي للعلم، وفي تطورها يتلخص تطور العلم. وإذا كان لكل قوم ألفاظ ولكل صناعة ألفاظ، فإنّه من البديهي ألا تفهم تلك الصناعة ولا آثار أولئك القوم، إلا بمعرفة تلك الألفاظ».⁶ فالمصطلح يتعدّد ويختلف باختلاف وتعدّد العلوم، فكل علم اصطلاحاته، ولهذا يعتمد عليه الكثير من الباحثين والدارسين، وفي هذا الإطار بذل العرب جهدا واضحا في تحديد مفهومه.

ونظرا لأهمية المصطلحات ومركزيتها في ترتيب أسس التفاهم والتواصل بين المبدع والمتلقي فإنّ «دراستها من أوجب الواجبات وأسبقها وأكدها على كل باحث في أي فن من فنون التراث... لأنها الخطوة الأولى للفهم السليم الذي عليه ينبني التقويم السليم»،⁷ فكانت خطوتنا للفهم الصحيح لفكر حازم من خلال التنقيب في مصطلحاته التي استخدمها في منهاجه.

2- مصادر المصطلح عند حازم القرطاجني:

إنّ أول ما يلفت انتباه قارئ "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" كثرة وتنوع المصطلحات التي وظّفها القرطاجني في صياغته لمشروعه التنظيري: فهناك

المصطلحات الفلسفية والنقدية، والمصطلحات البلاغية والأسلوبية، والمصطلحات العروضية، والمصطلح النفسي. فالكتاب يعجّ بالألفاظ والمصطلحات، ممّا جعل محقّق الكتاب يضع معجم يشرح فيه بعض مفردات " القرطاجني " ومصطلحاته تيسيرا وإضاءة للقارئ.

لقد ساهم ظهور القرطاجني المتأخّر في تنوّع منابع مصطلحه، ويمكن حصرها في قسمين: المصادر العربية (التراثية)، والمصادر الأجنبية (اليونانية).

2. 1- المصادر العربية:

استثمر القرطاجني في كتابه أعمال المتقدّمين، فقد كان عارفا، واسع الثقافة، تتطّق بذلك الشواهد المتنوّعة التي طرّز به مصنّفه، فهو يستدل أحيانا بالشواهد القرآنية التي يحيل عليها، وأحيانا أخرى يذكر عددا كبيرا من شعراء الجاهلية والإسلام، كامرئ القيس وزهير والنابعة، ويستشهد بأبيات كثيرة للشعراء الأمويين، ويطيل الوقوف عند بعض الشعراء العباسيين كأبي تمام، والمتنبي.

يعود تشكيل المصطلح عند حازم القرطاجني إلى تناولات نقدية وبلاغية قديمة، ممّا يؤكد عمق تكوينه وسعة اطلاعه على الموروث القديم. ونلمس ذلك في كتابه المنهاج من خلال اقتباساته، وتناوله لقضايا نقدية وبلاغية كانت محور اهتمام سابقه من النقاد القدامى، وإشارات له لأخبار العرب ووقائعهم، وإلى عدد من أسماء النقاد العرب الماثلين بأثرهم في فكره، بحيث كان « يحيل على مؤلّفاتهم وتصانيفهم للتعريف بأذواق ودقائق الصناعة الشعرية. فيلفت أحيانا الأنظار إلى آراء الجاحظ، والآمدي، والخليل ابن أحمد الفراهدي، وأبي الفرج الأصفهاني، ويتعرّض بكثرة إلى مقالات قدامة بن جعفر، وابن سنان الخفاجي ».⁸

وعلى هذا الأساس، فقد ألّم حازم القرطاجني إماما واسعا بكلّ ما كتبه علماء البلاغة والنقد من العرب فهو يذكر بعض الأدباء كأبي الفرج الأصفهاني، ويستشهد بكلام الجاحظ، وينتفع بما كتبه قدامة، كما يستفيد من ابن سنان الخفاجي، ويذكر الكثير من شواهد، ولم يهمل الاستفادة من بعض علماء اللغة كالخليل بن أحمد الفراهيدي، والأصمعي.

ومثلما استفاد القرطاجني من علماء البلاغة والنقد، فإنّه تأثّر بالفلاسفة المسلمين الذين لهم دور كبير في ظهور وتشكيل المصطلح عنده، فقد أخذ عنهم مصطلحات فلسفية، ومنطقية إذ شغلت حيزا كبيرا من كتابه، ويظهر ذلك من خلال إشارته إلى ابن سينا وهو من الفلاسفة المميزين عنده، حيث ورد اسمه في الكتاب "أربعة وعشرين مرة"، ونقل عنه أربعة عشر نقلا⁹ كما «استمد منه ما ينيف على أربعة وأربعين مصطلحا هي: علم الشعر، وطراغونيا، وقياس ووجود، ومعنى كلي، وتخيّل شعري، وخرافات بسيطة وقصص مخترعة، وطباع، وأقاويل شعرية، وأقاويل كاذبة، وقول مؤتلف، ومقدمات مخيطة، وتخييل ومقدمات صادقة، ومقدمات كاذبة، وهيئة، وتأليف، ومحاكاة، وصدق وكذب، وأقاويل برهانية، وجدلية وخطابية، وممكن وممتنع، ونادر، ومشوريات، ويقين، ومحاكاة تحسين، وتقبيح، ووصف الشيء بما يطابقه والصّور القبيحة، والتعليم، والتأليف المتّقف، والعلّة، والشعرية، وزمان القول، والمسموع والمفهوم».¹⁰

أمّا بالنسبة للغارابي فقد نقل عنه قولين،¹¹ أخذّا منه مصطلحي الأقاويل المخيطة، والتصديق، وذلك في قوله: «وقد قال أبو نصر في كتاب الشعر: الغرض المقصود بالأقاويل المخيطة أن ينهض السامع نحو فعل الشيء الذي خيّل له فيه أمر ما من طلب له أو هرب عنه. ثم قال: سواء صدّق بما يخيّل إليهن ذلك أم لا كان الأمر في الحقيقة على ما خيّل له أو لم يكن».¹² وهذا ما يظهر بالفعل تأثّره العميق بالفلاسفة المسلمين.

2. 2- المصادر الأجنبية:

أفاد القرطاجني من شروح الفلاسفة للتراث الأرسطي، فاستطاع فهم واستيعاب النقد اليوناني الذي كان تأثّره به واضحا في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، وذلك من خلال إشارته إلى أرسطو، وأفلاطون وسقراط، وبالتالي توظيفه لمصطلحات يونانية « بطريقة التّأثر والاستيعاب، لا النقل المجرد والتقليد المحض».¹³

استقاد القرطاجني من هذا المنبع بعدد كبير من مصطلحات الفلسفة والمنطق، بحيث أخذها عن فلاسفة اليونان من خلال الترجمات العربية، كمصطلح "أرجل"¹⁴ العروضي الذي أخذه عن ابن سينا، والذي نقله بدوره عن التراث اليوناني.

ومجمل القول، فإن حازم القرطاجني ارتكز في كتابه على خطين واضحين في الولوج إلى عالم المصطلح، الأول يتمثل في المصادر العربية بكل خلفياتها، والثاني يتمثل في المصادر اليونانية.

والمتدبر لكتاب "المنهاج" يلاحظ بسهولة، أن المادة الاصطلاحية فيه مستمدة من هذا التفاعل الثقافي العربي واليوناني، أي أن المتتبع للخلفية التي شكّلت المصطلح لدى القرطاجني يدرك أنها لم تنطلق من فراغ، وإنما تعود إلى تاريخ مصطلحي متعدّد الوجوه من نقد، وشعر، وبلاغة وفلسفة، ونحو.

3- المصطلح القرطاجني:

حرص حازم القرطاجني على وضع المصطلحات باعتبارها وعاء للمفاهيم، والأفكار التي يريد من خلالها وضع قوانين تحكم الشعر، والنقد والبلاغة، فكان على وعي تام بأهمية المصطلح ما دامت الدّعمة الأساسية التي يقوم عليها كتابه. يبدو من خلال تصفحنا للكتاب تنوّع المصطلحات التي وظّفها القرطاجني، فهي تتفرّد بطبيعة خاصّة لأنها تجمع في ثناياها مصطلحات موروثية، وهي المتداولة قبله، والتي أشار إليها سابقوه. ومصطلحات مبتكرة خاصة به، اتخذها لنفسه. وتتمثل سمة الابتكار عنده خير تمثيل من «خلال طريقة تشغيله للمصطلحات مجتمعة متناغمة، أي تكمن في إعطاء المصطلح حيويته الوظيفية لا لينصب كمصطلح منفرد، بل ليشكّل مع مجموعته أو منظومته من المصطلحات آليات فاعلة في إنتاج نظريته النقدية»،¹⁵ وبهذا تعدّ المصطلحات التي تناولها القرطاجني متداخلة فيما بينها إذ لا يمكننا فهم مصطلح، إلّا بمعرفة العلاقة التي تربطه بآخر، سواء بصفة مباشرة، أو غير مباشرة.

استطاع القرطاجني أن يميّز، ويتفرّد عن غيره من أسلافه البلاغيين والنقاد، وذلك باختراعه وصياغته لمصطلحات استقاها من مصادر تراثية، أو أجنبية

للتعبير عن مختلف المفاهيم والقضايا التي أثارها وأبدع فيها، فتعددت بذلك المصطلحات التي تناولها.

ويرى بعض الدارسين أنّ المصطلحات التي وردت في كتاب "المنهاج" إما مبتكرة أو معدلة فليس ثمة موروث بقي كما هو. كما نجد الكثير من مصطلحات القرطاجني « ثنائية مزدوجة أو مركبة »،¹⁶ مثل: المتصورات الأصلية والمتصورات الدخيلة، والمعاني الأول والمعاني الثانوي، والتخايل الأول والتخايل الثانوي، والجهات الأول والجهات الثانوي، والكذب الاختلاقي والكذب الإفراطي.

وفي هذا تذهب فاطمة عبد الله الوهبي إلى أنّ المصطلح كهاجس يبدو واضحا عند القرطاجني، فالميزة التي طبعت دراسته تتمثل في النقاء النظرية بالتطبيق.¹⁷ وبهذا يبدو أن القرطاجني كان واعيا بأهمية المصطلح في نقد الشعر، فاهتم به حيث «لم يترك مصطلحا يمكن الإفادة منه في منهجه النقدي إلاّ حشده لهذه الغاية»،¹⁸ إذ يمثل بشواهد من شعر الجاهليين والمحدثين بغرض توضيح قضايا البلاغة والنقدية.

ويتجلى وعيه من خلال استخدامه لصيغة "المصطلح" نفسها في كتابه، يقول: «...قد نص جميعهم على قبح إيراد المعاني العلمية والصناعية والعبارات **المصطلح** عليها في جميع ذلك»،¹⁹ ويستخدم أيضا صيغة "الاصطلاح" كإشارة للمصطلح، وذلك ما ندركه عند حديثه عن المطابقة في قوله: «...يسمى تضاد المعنيين تكافؤا ولا تشاح في **الاصطلاح**». ²⁰ وفي حديثه عن الأوزان يقول: «ومما بني على أربعة أركان الوزن الذي قدمت أن المحدثين هم الذين علم من أقوالهم، ولا يبعد أن يكون من وضع العرب فإنّه متناسب الوضع، فيجب أن يلحق بما يستعمل من الأوزان و**لنصطلح** على تسميته باللاحق لهذا المعنى»،²¹ وترى فاطمة عبد الله الوهبي أن القرطاجني «يستخدم للتعبير عن المصطلح كلمة لقب التي تبدو مرادفة لكلمة المصطلح»²²، وذلك عند حديثه عن الاستطراد في قوله: «وإنما أخذ هذا اللقب من استطراد الفارس، وهو أن يريك أنه فرّ وإنما يريد بذلك/ اغترار من ينقطع في طلبه، فيسرع الكرّ...».²³

ويراعي القرطاجني في الكثير من مصطلحاته ضرورة الاهتمام بالمصدر اللغوي لها، لتحديد طبيعة العلاقة التي تجمع بين المصطلح وجذره اللغوي، كما هو الحال لمصطلحي المطابقة، والتقسيم. ويربط بين عدد من المصطلحات لوجود علاقة مباشرة أو غير مباشرة فيما بينها، فتظهر بذلك متصلة ومتداخلة نذكر على سبيل المثال، "الاستعارة" التي تعد إحدى وسائل التلخيص من التكرار. لقد أدرك القرطاجني أهمية المصطلح فاعتنى به عناية زائدة في تحديده للمفاهيم المختلفة، مما جعله يتميز بخصوصيته، لكونه مرتبطا ببنية كتابه ومنهجه، مما يجعل دراسته ضرورة ملحة لاستخلاص مفاهيم نظريته في النقد والشعر والبلاغة.

وما دامت المصطلحات هي المفاتيح الأولى لعالم النص، تطلب منا الوقوف على دراسة وتحليل مفهومها بغية استكشاف وتفكيك فكر القرطاجني، وفهمه للقضايا التي تثيرها. فكان منطلقنا هو دراسة العنوان الرئيس للكتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" خطوة أولى باعتباره أول واجهة تواجه القارئ، ثم الانتقال إلى مصطلحاته المنهجية والخاصة به، والتي تعكس اهتمامه بالمصطلح. ويظهر هذا جليا على مستوى شكل الكتاب، وتوزيع مادته حتى يستوعب المتلقي محتواه.

3. 1- مصطلحات العنوان:

يعدّ العنوان أول عتبة من عتبات النص، والمفتاح الأول لإثارة شهية القارئ، فهو أساس النص منه يبدأ وإليه ينتهي، حيث ينطلق منه المؤلف كفكرة أولية تتشعب وتتفرع لتولّد النص، وتتكتف في النهاية لتنتج كلمة، أو جملة، أو عبارة تجمع تشعبات ذلك النص.

إنّ البحث في العنوان هو بحث في صميم النص، لأنّه أول ما يظهر للقارئ ويعترضه، إذ يعمل على استدعاء مضمونه في ذهن المتلقي، ومن هنا يحدث التفاعل بين خبرة المتلقي ومختلف تجاربه ومعارفه السابقة من جهة، والعنوان من جهة أخرى، والمؤلف كطرف ثالث في القضية لاستكمال الفهم.

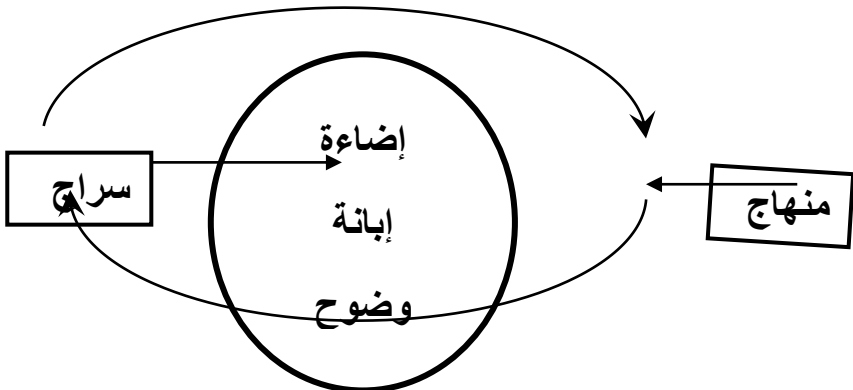
يسفتتح حازم القرطاجني كتابه بعنوان: "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" متوجّها به كأول عتبة في كتابه إلى المتلقي «محمّلا إياه القصد والإرادة في إبلاغه

إرساليتها البلاغية والجمالية وهو كما نلاحظ لا يتعدى مظهره اللغوي حدود الجملة المعطوفة على جملة أخرى»،²⁴ حيث أدت هذه الجملة المعطوفة إلى إقامة علاقة تواصلية بين الباحث (حازم القرطاجني) والمتلقي، فيتحوّل العنوان بموجبه إلى خطاب متشعّب رغم مظهره اللّغوي القصير، إلّا أنّه يفتح شهية المتلقي بما يضمّره من تشويق وإثارة.

يبدأ العنوان بلفظ "منهاج"، وقد جاء في لسان العرب: «طريق نهج بيّن واضح وهو النهج [...] ومنهج الطريق: وضحه والمنهاج: كالمنهج وفي التنزيل ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾»،²⁵ وأنهج الطريق وضح واستبان وصار نهجا واضحا بيّنا [...] والنهج الطريق المستقيم والمنهاج: الطريق الواضح». ²⁶ وكلمة المنهاج من أشهر الكلمات عند الأصوليين والفقهاء، وكان الفقيه أو الأصولي يلقّب بالمنهاجي لحسن فهمه لكتب المنهاج. والقرطاجني هنا يستخدم المصطلحات الفقهية التي غلبت عليه، فقد أجزى في الفقه المالكي وسنه عشرين سنة.²⁷

يستخدم القرطاجني مصطلح "منهاج" للدلالة على الإبانة والوضوح، وهو لا يبتعد عن دلالة لفظ "سراج" الذي يعني «المصباح الزاهر الذي يسرج بالليل، والجمع سرج [...] والسراج: الشمس فبضوء السراج يهتدي الماشي»²⁸، وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.²⁹ وعليه تنتمي العلامتان إلى حيّز دلالي واحد يتمثّل في الإضاءة والإبانة والوضوح. ومن هنا «حاول حازم أن يرسم "منهاجا" للبلغاء وأن يوقد سراجا للأدباء».³⁰ فيصير المنهاج إذاك مكافئا للسراج في الدلالة.

ويمكن تلخيص هذه الفكرة في المخطط التّالي:



حيز دلالي مشترك

كما يشغل هذا العنوان في إبراز هذه الدلالة على قيمة الثنائيات، بحيث نجد الثنائية العامة التي تشكّل الخطاب "منهاج البلغاء/سراج الأدباء"، والتي تنفرع عنها ثنائيتين هما:

* "منهاج/سراج"

* "البلغاء/الأدباء"

ويشير التركيب بين طرفيها إلى العلاقة القائمة بين الإنتاج والتلقي، بين منهاج من حيث كونه معبدا واضح المعالم، مسطرّ الخطوات، وبين البلغاء، ثم تأكيد الطرح بالعطف عن طريق الحرف "واو"، حيث تتحوّل العلاقة من منهاج إلى السراج، وهما من حيز دلالي واحد يفيد كلاهما الوضوح والبيان.³¹

وبالتالي فإنّ العنوان بهذا المعنى يحمل دلالة الطريق، أو السبيل التي ينبغي على البلغاء (المتلقي 1) سلوكها وعلى الأدباء (المتلقي 2) الاسترشاد بنورها.

3. 2- بيان المصطلحات المنهجية عند حازم القرطاجني:

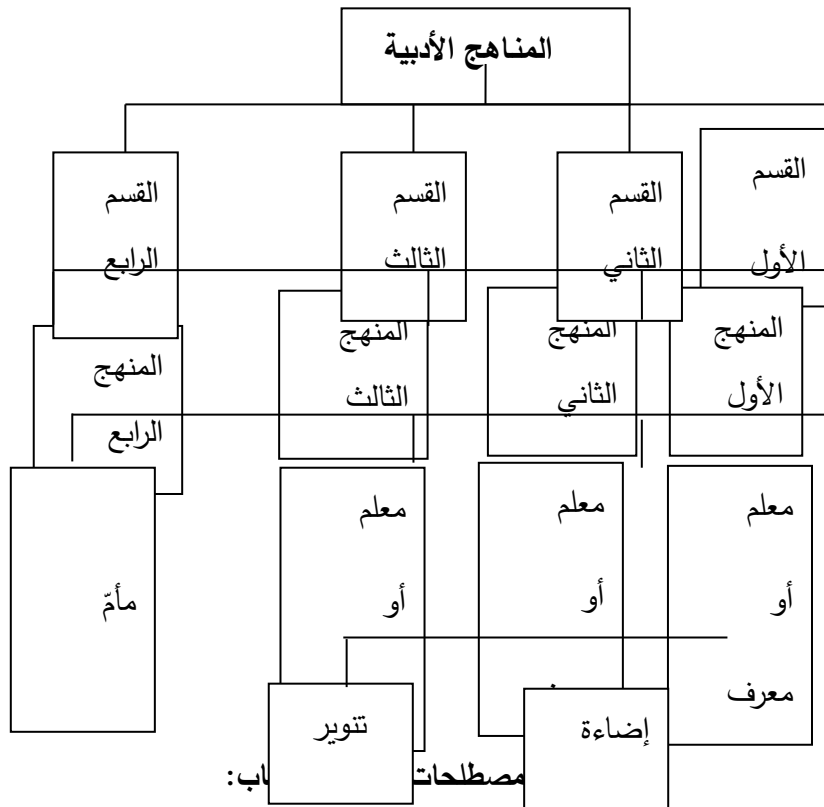
1.2.3 - منهجية الكتاب:

تناول حازم القرطاجني في كتابه "المنهاج" صناعة الشعر وطريقة نظمها، فصنّفه في أربعة أقسام إلّا أنه لم يصلنا إلّا في أقسام ثلاثة بعد أن ضاع القسم الأول الذي تناول الألفاظ وأجزاء العبارة وطرق الأداء التي علّق عليها المحقق قائلا: « في كلام حازم نفسه إشارات عديدة إلى موضوعات هذا القسم المفقود فهو يتناول بالبحث القول وأجزائه، والأداء وطرقه، والأثر الذي يحصل للسامعين عند صدور الكلام»³² لذلك يبدأ الكتاب من القسم الثاني الخاص بالمعاني، يليه القسم الثالث الخاص بالمباني، ويختمه بالقسم الرابع الخاص بالأسلوب.

فكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة موزّع على أربعة أبواب، عنوان القرطاجني كلّ واحد منها على التعاقب: «معلم، أو معرف»، وأحيانا يختمها بملاحظات بلاغية يعنونها "مأم" أو "مأم" على الأفراد والجمع، وكل فصل تتناثر فيه كلمات "إضاءة

و"تنوير" على التعاقب. ومن هنا ندرك الشكل المنطقي والمتميز في تقسيمه للكتاب لم نألفه عند سابقه.

ويمكن توضيح الرؤية المنهجية لكتاب حازم في المخطط التالي:³³



أظهر حازم القرطاجني تمييزا واضحا في تنظيمه لمادته، وبناء كتابه على أساس منهجي دقيق بحيث وضع مصطلحات جديدة لم يألفها العرب، وهي "منهج"، "معلم"، "معرف"، "إضاءة"، "تنوير"، "مأم" وكلها مصطلحات تتكرر، وهي خاصة به. وبهذا يمكننا أن نعتبر أن منهجيته هي التي جعلت من الكتاب انجازا فريدا من نوعه.

3. 1.2.2 - منهج:

" المنهج " مصطلح خاص بالقرطاجني، استعمله للدلالة على بعض أقسام كتابه ويريد به "الباب"، فقسّم كتابه إلى أربعة أبواب، أو أقسام، وسمّى كل قسم منهجا « ولكن المعنى العام للمنهج هو الأسلوب الذي يقود إلى هدف معيّن في البحث، والتأليف أو في السلوك»³⁴. ونجد في الدراسات المعاصرة أنّ مصطلح منهج يشير إلى: « مجموعة من الخطوات العقلية المتّبعة في اكتشاف وإيضاح حقيقة ما، أو مجموعة الخطوات المنطقية المتّبعة في معالجة مسألة أو ظاهرة من الظواهر».³⁵ وبهذا فالقرطاجني يستخدم هذا المصطلح بغية توضيح آرائه، وذلك بإتباع خطوات خاصة تكشف عن مفاهيمه.

3. 2.2.2 - معلم/معرف:

تكاد تجمع القواميس على أنّ مصطلح "معلم" إشارة إلى الأثر، فقد جاء في لسان العرب: «المعلم: ما جعل علامة وعلمًا للطرق والحدود، مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه وفي الحديث: « تكون الأرض يوم القيامة كقرصة النقيّ ليس فيها معلم لأحد» [...] وقيل المعلم الأثر [...] يستدل به على الطريق».³⁶ ويبدو أنّ القرطاجني يستخدم مصطلحي "معلم" و"معرف" بدقّة، فيربط الأول بالعلم، والثاني بالمعرفة.

إنّ العلم إدراك الكلّي والمعرفة إدراك الجزئي، والعلم يستعمل في التّصديقات والمعرفة في التّصورات، فمن شروط العلم أن يكون محيطا بأحوال المعلوم معرفة تامة، ومن أجل ذلك وصف الله بالعلم لا بالمعرفة. فالمعرفة أخصّ من العلم، لأنّ للعلم شروطا لا تتوافر في كلّ معرفة، فكل معرفة علم وليس كل علم معرفة.³⁷

ولهذا يسبق القرطاجني المعلم على المعرف، ويقصد بهما عنوان فصل، أو مبحث مثل المقصد والمطلب، وهنا يظهر تميزه ودقته في استخدام المصطلحات.

3.2.2.3 - إضاءة/تنوير:

يلاحظ القارئ أن هناك نفس الدلالة تتطوي تحتها مصطلحي "إضاءة/تنوير" من حيث المعنى المباشر، وقد جاء في لسان العرب أن: «التنوير من نار أي أضاء [...] والتنوير: الإنارة [...] وتنوير الشجرة إزهارها».³⁸ فأكثر القواميس لا تفرق بين الضوء الذي هو أصل الضياء والنور، بل تعتبرهما مترادفين، لكن الله سبحانه وتعالى فرق بينهما، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾³⁹، فسمّى الأولى ضياءً والثانية نورا، فالشمس هو المصدر الرئيس للضوء، أما القمر فهو مصدر غير مباشر للضوء، إذ يعكس ضوء الشمس إلينا فنراه ونرى أشعته التي سماها العليم الحكيم نورا.⁴⁰ إن موضع استخدام مصطلح "إضاءة" في كتاب المنهاج يختلف عن موضع استخدام مصطلح "تنوير" بحيث يرد مصطلح إضاءة، ثم مصطلح تنوير على التعاقب، وذلك إدراكا ووعيا من القرطاجني:

- الإضاءة = إلقاء بعض الشعاع المضيء لتوضيح الفكرة المراد تبليغها للقارئ، فيتمكّن بذلك من فهم جوانب الكلام واستيعابه.
- التنوير = إضاءة + إضاءة + ... إضاءة، أي تبسيط وشرح دقيق ومطول للفكرة.

إن إضافة القرطاجني مصطلح "تنوير" لمصطلح "إضاءة" كان بهدف شرح وبسط، وتوضيح أكثر لقضاياها، والكشف عن مفاهيمه، لإدراكها واستيعابها من طرف المتلقي الذي كان محور اهتمامه من بداية كتابه إلى نهايته.

4.2.2.3 - مأم:

هو المقصد أو المطلب أو فصل من باب، وقد أطلقه القرطاجني إزاء معلم ومعرف في كتابه والملاحظ في القواميس العربية، كلسان العرب وأساس البلاغة، ومعجم العين خلّوها من هذا المصطلح.⁴¹

لقد ربط إحسان عباس دلالة العنوان من جهة والمصطلحات المستخدمة في منهجية كتاب القرطاجني من جهة أخرى فـ «المنهج (أو المنهاج) هو الطريق الواسعة، ولذلك كان كل فصل بهذا العنوان (في الإبانة عن ماهيته)، وعلى طول هذا الطريق "معلم"، أي إشارة تدل على (طريق العلم) و"معرف" أي إشارة تدل على (المعرفة)، والفرق بين الاثنين أن العلم يوصل إلى القواعد التي تستند إلى شؤون الذهن والقواعد المتصلة بالتفريعات المنطقية، وأن المعرفة يدل في الغالب على التقديرات النفسية، أما "المأم" فإنه يدل على مذهب يفضي إلى غاية أو مقصد، وهذه المصطلحات الثلاثة متصلة بعنوان الكتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" غير أن الساري على الطريق يظل بحاجة إلى "سراج" (القسم الثاني من العنوان)، وهذا السراج هو الذي يمنح الماشي على المنهاج "إضاءة" و"تنوير"، والفرق بينهما أن الإضاءة أقل سطوعا من التنوير، فكل فقرة تحمل عنوان إضاءة هي بسط لفكرة فرعية، وكلّ تنوير فهو مزيد بسط لفكرة جزئية قد تجيء في الإضاءة نفسها».⁴²

ويبدو أن حازم القرطاجني قد تأثر من الناحية المنهجية في استخدامه للمصطلحات بابن سينا، وهذا ما نستشفه في كتابه "الإشارات والتنبيهات" حيث قسمه إلى أنماط عشرة، ومهد لهذه الأنماط بعشرة أنهج وأطلق ابن سينا على مجموع الأنماط والأنهج اسم "الإشارات والتنبيهات"، كما قسم الأنماط والأنهج إلى فصول صغيرة أسماها تارة "إشارات"، وتارة "تنبيهات"، وتارة "أوهاما وتنبيهات"، ولعل ابن سينا قد عنى على وجه الدقة ما تفيد كلمة "إشارة"، فهي في اللغة العربية لون خفي من ألوان الدلالة، فالذي يشير إلى الشيء إنما يدل عليه بالرمز والتلميح، لا بالإفصاح والتوضيح، كما أن لفظة تنبيه من هذا القبيل، فالذي ينبه إلى الشيء كأنما يلفت نظر الغير إليه في سرعة خاطفة.⁴³

في حين أن حازم القرطاجني استخدم "إضاءة" و"تنوير" لغرض التوضيح لا التلميح كما فعل ابن سينا.

ومجمل القول، فإنّ هذا التقسيم المنفّرع وهذه المصطلحات الكثيرة التي استخدمها القرطاجني في منهاجه كان الهدف الرئيس منها سلامة الاتّصال بينه وبين متلقّيه، وتحقيق الفهم والإفهام.

خاتمة:

بذل حازم القرطاجني جهدا كبيرا في وضع المصطلح، متسلّحا في ذلك بتجربته الشعريّة، وثقافته الواسعة والمتنوّعة بين النحو والعروض، والنقد والبلاغة من جهة، واستفادته من التّراثين العربي واليوناني من جهة أخرى. وبذلك خالف أسلافه من البلاغيين والنقاد، وتجاوزهم في كثير من القضايا المهمّة، لأنّه كان مولعا بالتّجديد والابتكار، ممّا أهّله أن يحتلّ موقعا متميّزا في تراثنا النقدي والبلاغي العربي.

فقد استطاع أن يوقد سراجا يستضيء به كل من جاء بعده فكان مرجعا للنقاد ومصدرا للباحثين في كثير من العلوم، كما أوجد لهم المنهاج الذي يسيرون عليه. وبناء على هذا يمثّل القرطاجني علامة في التراث النقدي والبلاغي العربي، فهو الذي قيل فيه "حبر البلغاء وبحر الأدباء"، كيف لا ونحن أمام صاحب ثقافة متنوّعة وتجربة عميقة، أحدث منعرجا معرفيا في التراث العربي.

الهوامش:

1- ابن منظور، لسان العرب، ط1، ج2، دار صادر، بيروت، 1990، (مادة صلح)، ص517.

2- أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، ط1، ج1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989، ص09.

3- يراجع في هذا الأمر: الشريف الجرجاني، التعريفات، أبو البقاء الكفوي، الكليات، الزبيدي، تاج العروس، مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية، علي القاسمي، مقدمة في علم المصطلح.

4- ينظر: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر 2008، ص22.

5- ينظر: المرجع نفسه، ص69.

- 6- الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ط2 ، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت 1990 ، ص 13 .
- 7- المصدر نفسه، الصفحة نفسها .
- 8- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي بيروت 1986، ص100.
- 9- ينظر المصدر نفسه، ص64، 69 (مرتين)، ص70 ، ص74 ، ص78 (مرتين)، ص81 ، ص83 ص84 (مرتين)، ص85 (مرتين) ، ص92 ، ص117 ، (3 مرّات) ، ص118 (مرتين)، ص122 ، ص124 ، ص125 (مرتين) ، ص266 .
- 10- عباس عبد الحليم عباس، نضال محمد فتحي الشمالي، "معايير تشكيل المصطلح وإشكالاته في النقد العربي القديم" « حازم القرطاجني نموذجاً»، ص 193، 194 .
- 11- ينظر: حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص86، ص123 .
- 12- ينظر: المصدر نفسه، ص86 .
- 13- عباس عبد الحليم عباس، نضال محمد فتحي الشمالي، "معايير تشكيل المصطلح وإشكالاته في النقد العربي القديم" « حازم القرطاجني نموذجاً»، ص195 .
- 14 - مصطلح أرجل يشير إلى المقاطع الصوتية، ويحتوي على ثلاثة أنواع من الأسباب(خفيفة، وثقيلة، ومتوالية)، وثلاثة أنواع من الأوتاد(مجموعة، ومفروقة، ومتضاعفة).
- 15- فاطمة عبد الله الوهيبي، نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002 ص 259.
- 16- المرجع نفسه، ص260
- 17- ينظر: المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- 18- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، ط2، دار الشروق، عمان، 1993، ص570
- 19- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص25.

- 20- المصدر نفسه، ص48.
- 21- المصدر نفسه، ص256.
- 22- فاطمة عبد الله الوهبي، نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، ص256
- 23- حازم القرطاجني، منهاج البلاغ وسراج الأدباء ، ص317.
- 24- خيرة مكاي، العنوان ودلالة التلقي الجمالي، مجلة حوليات التراث، مستغانم، العدد9 ، 2009 ، ص84 .
- 25- سورة المائدة: الآية 48
- 26- ابن منظور، لسان العرب، ج2، (مادة نهج)، ص383.
- 27- ينظر: محمد محمد أبو موسى، تقريب منهاج البلاغ لحازم القرطاجني، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 2006، ص31 .
- 28 - المصدر السابق، (مادة سرج)، ص 297 ..
- 29- سورة نوح: الآية 16 .
- 30- إحسان عباس تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، ص549.
- 31-- ينظر: خيرة مكاي، العنوان ودلالة التلقي الجمالي، مجلة حوليات التراث، ص85 .
- 32- ينظر مقدمة المحقق لكتاب المنهاج، ص94.
- 33- ينظر: الطاهر بومزبر، أصول الشعرية العربية (نظرية حازم القرطاجني في تأصيل الخطاب الشعري، ص23.
- 34- أحمد مطلوب، معجم النقد العربي القديم، ج2، ص364.
- 35- سمير سعيد حجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، (د.ط)، دار طيبة للنشر والتوزيع ، القاهرة، 2004 ص121.
- 36- ابن منظور، لسان العرب، ج12، (مادة علم)، ص419 ، 420 .
- 37- ينظر: أبي هلال العسكري، الفروق، تح: أحمد سليم الحمصي، ط1 ، طرابلس لبنان، 1994 ، ص86 .
- 38- ابن منظور، لسان العرب، ج4، (مادة نور)، ص240 -243.
- 39- سورة يونس: الآية 5

- 40-- ينظر أحمد مصطفى متولي ، الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية ، ط1 ، دار ابن الجوزي القاهرة، 2005، ص 57، 58 .
- 41- تتبعنا هذه القواميس ولم نعثر على مصطلح مأم.
- 42- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) ص 581، 582.
- 43- ينظر: أبو علي ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، شرح: نصير الدين الطوسي، تح: سليمان دنيا، ط2، ج2، دار المعارف، مصر، ص 7- 15.